المحاضرة التاسعة: أهم المناهج وأشهرها في الدرس اللغوي.

تضافرت جهود العلماء على مر التاريخ لوضع القوانين التي تسير عليها اللغة، ورصد ما يعتريها من تغير عبر العصور، فتنوعت المناهج بين الوصفي والتاريخي والمقارن والمعياري والتقابلي بحسب الهدف الذي يريد أن يصل إليه كل باحث، وكشفت الدارسات اللغوية في العصر الحديث عن اكتمال بناء هذه المناهج، ووضوح معالمها وأركانها، فظهرت مدارس لسانية متنوعة، تنوعت من حيث المبادئ والأفكار، وكذلك من حيث الزمان والمكان ، و مناهج البحث في اللغة هي الطريقة التي يسير عليها دارس اللغة ليصل إلى حقيقة في موضوع من موضوعات اللغة، بداية من العزم على الدراسة وتحديد الموضوع حتى تقديمه ثمرة علمية ، وأبرز مناهج البحث في اللغة هي: المنهج المعياري ، والمنهج الوصفي ،المنهج التاريخي ، المنهج التقابلي ،والمنهج المقارن،..... .

أ- **المنهج المعياري:**

ساد هذا المنهج الدراسات اللغوية القديمة ، بدأ وصفيّا ، ثمّ انتهى معياريّا ، أي أنّه قام في البداية على سماع المادة اللغوية وجمعها ، وروايتها للخروج بعد ذلك بقواعد لها طبيعة الوصف اللغوي ، لكنّ هذا المنهج سرعان ما تحول إلى معياريّ

لقد نشأ النحو العربي نشأة وصفية ، باعتماد الاستقراء ، ولكنه جنح صوب المعيارية ، بعد أن وضعوا القواعد والأصول ، وتوقفوا عن استقراء المادة اللغوية ، فبرزت اللغة الرسمية ممثلة بهذا ، واعتبرت مقاييسه وقواعده فيصلا في الصحة والخطأ ، وغالبا ما تكون المعيارية في أول الأمر لهجة محلية تنال شيئا من التمجيد ، أو التقدير ، ويعترف بها كلغة رسمية ، فالمعيارية بهذا المفهوم هي اللهجة التي تتخذ مقياسا للفصاحة والبلاغة كتفضيل لهجة قريش في الدراسات العربية على سائر اللهجات لأسباب دينية وسياسية ، ثم تكون هذه اللهجة نواة للمنهج المعياري وتتخذ قواعدها معيارا للخطأ والصحة كما في تاريخ العربية إنّ الهدف الذي نشأ من أجله النحو العربي وهو منع اللحن والخطأ فرضت عليه أن يكون معياريا لا وصفيا [1].

ويّتصف التراث اللغوي العربي بقيامه على المعيارية وتخّلف النزعة الوصفية عنه، وهي التي تُعني بالصحة اللغوية أو معيار الصواب والخطأ، بهدف تقديم قواعد تعصم اللّسان أو القلم من الخطأ واللّحن؛ حيث تفيدنا بمستوى لغوي محدد واجب الحفاظ عليه ويمتنع الخروج عنه وترسم لنا حدودا لما ينبغي أن يقال، وهذه الأخيرة مستخلصة من كتب القواعد وأقوال اللّغويين، وقد غلبت هذه السمات على الدراسات النحوية للغة العربية ، وإن المتأمل في اتّجاه اللغويات العربية المعاصرة في تقويمها للتراث العربي، يلحظ أنّه اتّجاه نقدي قائم على الحديث عما فيه من معيارية وفلسفة ، بخلاف اتجاهات المستشرقين ، والمنظرين اللغويين الغربيين الذين أثبتوا للتراث اللغوي العربي أوجه تفوق كبيرة، رغم أن النظريات عند العرب لم تأخذ في الأعم الأغلب عنوانا بارزا في دراساتهم ، فجاءت أثناء عرضهم لمفاهيم العلوم العربية وتصوراتها المختلفة، ولكن مهما قيل وما

يقال عن المنهج المعياري؛ فإنّه لا يزال سلطانا لا يتزحزح، كونه لا يمكن الاستغناء عنه وإ لا لكان جميع ما تفعله الأمم، وما تصنعه من وسائل لتعليم اللّغات لأبنائها ولغير أبنائها كلّه عبث كذلك؛ لأن مثل هذا التعليم لا يمكن أن يقوم إ لاّ على أساس معياري أي وجوب التمييز بين الخطأ والصواب.

ب- **المنهج الوصفي** :

يقوم هذا المنهج على وصف الظاهرة اللغوية وصفا دقيقا في زمان ومكان محددين لاعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي ، واعتماد القواعد الأكثر وضوحا وتبسيطا في تبيان عناصر اللغة ووصفها وتفسيرها ، إضافة إلى شمول المستويات اللغوية : الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية كافة وأنّه يتناول اللغة على أنها موضوع من موضوعاته ، ولذلك يوصف بأنّه منهج ساكن حيث توصف اللغة بوجه عام على الصورة التي توجد عليها في نقطة زمنية معينة ، وللمنهج الوصفي أسس عامة وقواعد عملية في التحليل ، منها : أن الوصف لأي لغة ينبغي أن يبدأ من الصورة المنطوقة إلى الصورة المكتوبة ، ويتّخذ الوصف ثلاثة طرق في تحليل الظاهرة اللغوية ، وصولا إلى تقعيدها ، وهي : استقراء المادة اللغوية مشافهة ، وتقسيمها أقساما ، وتسمية كل قسم منها ووضع المصطلحات الدالة على هذه الأقسام للوصول إلى وضع القواعد الكلية والجزئية التي نتجت عن الاستقراء فالبدء بالاستقراء وتسجيل الظواهر من أهم أسس المنهج الوصفي.

ويتجّلى بوضوح في منتجات لسانيات القرن العشرين، وهو المنهج الذي اعتمده سوسير **(F. D. Saussure)**في دراساته؛ حيث دعا إلى وصف اللّغة كما هي وليس كما يجب أن تكون، فاهتم في تأسيس نظريته على التمييز بين الكثير من الثنائيات أو التناقضات، ويعتمد هذا المنهج في دراسته للغة على اللغة المنطوقة، بالتركيز" على طبيعة المتكلم وشخصيته العلمية والثقافية أو على الراوي اللغوي حيث يدرس لهجة معاصرةكمصدر منهجه الوصفي"[2] ويعبر في ذلك عما يأتي:

الفترة الزمنية :حيث يهتم بتحديد الفترة الزمنية التي وقعت فيها تلك الدراسة.

الحيز المكاني :بتحديد المساحة المكانية بهدف تحديد المدونة، كون اللغة في تطور وتغير مستمر بتغير الأزمنة والأمكنة؛ حيث يقع اهتمامه على عينة محددة يجري عليها الدراسة فيوضح حجم هذه العينة وسبب اختيارها.

المستوى :الاهتمام بالمستويات اللّغوية (فصحى، وسطى، عامية) أو نوع الفن المتعامل معه (شعر، نثر، قصة،...الخ)، فيهتم بدراسة اللّغات واللهجات على حدسواء بهدف الوصول إلى استنباط قواعد كلّية تنطبق على اللّغات كلّها، فاهتم بذلك بكلّ المستويات بدءا بالأصوات؛ أي وصف الأصوات وقواعد تشكيلها للوقوف عند طبيعتها، ويهتم بجانب إصدار الأصوات

أو الجانب النطقي والجانب الفيزيائي لها (الموجات الصوتية) والجانب السمعي، كما اعتنى بالنظام الصرفي؛ أي المستوى الصرفي الذي يعتمد بدوره على نتائج البحث الصوتي، فيبين مختلف البنى الإفرادية، ويحدد أنواعها وأشكالها وصورها، ويهتم أيضا بالمستوى النحوي الذي يمثّل الرابطة بين المفردات في تكوين جمل.

ويتميز هذا المنهج بأنّه يدرس الظاهرة كما هي في الواقع فيقوم بوصفها، وتوضيح خصائصها اعتمادا على اختبار عينة ممثلة للمجتمع على أساس معيار مميز يمكننا من التعميم، وتبرز أهميته في أنّه :يسمح بجمع المعلومات الحقيقية والتدقيق والتفصيل لظاهرة موجودة فعلا في مجتمع معين، فيضع النقاط على حروف المشكلة الموجودة، كما أنّه يمكننا من معرفة ما يفعله الأفراد في مشكلة ما، ويستفيد بذلك من آرائهم وخبراتهم باتخاذ القرارات المناسبة الّتي يتم تعميمها في مشاكل ذات طبيعة مشابهة لها.

ج- **المنهج التاريخي** :يبحث تطور اللغة الواحدة عبر القرون في جوانبها المختلفة ، وأيّة دراسة تاريخية من جوانب اللغة الصوتية أو الصرفية ، أو النحوية ، أو الدلالية تُعدّ من صميم المنهج التاريخي . إذا كان المنهج الوصفي يشترط في دراسته لجوانب اللغة الواحدة وحدة الزمان والمكان ، فإنّ المنهج التاريخي يجعل دراسته لجوانب اللغة الواحدة عبر القرون ، أي من خلال مساحة زمانية واسعة حتّى يتسنى للباحث من خلال استظهار ما حصل للغة من جوانبها المختلفة من تطور تاريخي .

ويعتمد على الّلغة المكتوبة اعتقادا من أصحابه أن الّلغة المنطوقة لا تمثل إلا شيئا مخادعا فيعتمد على..." المخطوطات والنقوش المحفوظة على الأحجار وأوراق البردي وألواح الطين "[3] ؛ حيث يتتبع هذا المنهج دراسة حالات تطور البنية والتراكيب والدلالة مع الاهتمام بمدى تأثير الإقليم الجغرافي على الظاهرة الّلغوية عبر التاريخ، فيهتم بوصف وتسجيل ما مضى من وقائع وأحداث الماضي، ويقوم بدراستها وتفسيرها وتحليلها على أسس علمية دقيقة؛ حيث تجعل الباحث يشعر بالمشكلة ويقوم بتحديدها، ويصيغ الفرضيات المناسبة ويدرسها ويحّللها قصد الوصول إلى حقائق وتعميمات تساعده على فهم الحاضر على ضوء الماضي وتتمثل أهميته في أنّه يسمح بحل مشكلات معاصرة على ضوء خبرات الماضي ويسمح بإعادة النظر في البيانات وتقييمها بالنسبة لفروض معينة أو نظريات في الحاضر دون الماضي.

د- **المنهج التقابلي** :يتناول هذا المنهج مقابلة بين لغتين ، الأولى هي اللغة الأمّ الأصلية ، التي اكتسبها الفرد في طفولته وبيئته التي نشأ فيها ، واللغة الثانية اكتسبها بعد ذلك ، من أجل التعرف على الصعوبات والفروقات بين اللغتين حتى يسهل تعلمها . وإذا كان المنهج المقارن يعمد إلى مقارنة لغتين منتميتين إلى أسرة لغوية واحدة كشرط أساسي له ، ويهتم أساسا باستخدام الأقدم سعيا منه إلى إدراك اللغة التي خرجت عنها كل هذه اللغات ، فإنّ المنهج التقابلي يعمد إلى مقابلة لغتين أو أكثر دون أن يهتم بالجانب التاريخي إذ إنّ هدفه تطبيقي فقط ، لذلك يمكن تطبيقه على لغتين تنتميان إلى أسرة لغوية واحدة أو إلى أسرتين لغويّتين مختلفتين أو بين لغة ولهجة لمعرفة الفروق اللغوية بينها .

ويعتبر من أهم وأحدث مناهج دراسات اللّسانيات التطبيقية الحديثة و"يعتبر ميدانه تطبيقيا بحت يهدف إلى المقابلة، ويعتمد على المنهج الوصفي، موظفا نتائج بحوثه في مجال علم اللّسان التطبيقي "[4]، فهو منهج يركّز على الجانب التطبيقي لا النظري. ويقوم هذا المنهج بمقارنة لغتين أو أكثر، ولا يشترط فيها أن تكون من الأصل نفسه رغم أن معظم الباحثين يرون أن التقابل لا يكون إلاّ بين لغتين من فصيلة واحدة، ويقوم على رصد العناصر اللّغوية ومكوناتها الصوتية والصرفية والنظمية والدلالية والعروضية والبلاغية.

وتجدر الإشارة إلى أ ن سوسير تمكن من تغيير الفكرة السائدة حتى أواخر القرن التاسع عشر، اّلتي تتمثل في أن وظيفة اللّغة تمثيلية؛ أي أن اللغة تعبير عن الفكر وليس لها شكل خاص ومستقل بها؛ حيث تنتظم عناصرها بانتظام الأشياء في الكون ووفق ما يمليه العقل بدراسته اللغة في ذاتها ولذاتها، فخلّص بذلك اللغة من ذلك المفهوم الضيق؛ أي بعد أن كانت اللغة صورة تمثل الفكر أصبحت موضوعا قائما بذاته، وإن كلمة البنية في الدراسات اللسانية لم يأت بها سوسير؛ لأنّها كانت قائمة فيها منذ القدم، والذي يختلف فيها هو المعنى الذي نهدف إليه، فبعدما كانت تدلّ على" البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما...امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في مبنى ما "[5]، فقد برزت اللسانيات كفكرة جديدة في الفكر الإنساني الحديث، لكن هذا لا يعني أن البحث في اللغة بحث جديد؛ لأن البحث في اللغة وما يرتبط بها من قضايا فكرية ليس جديدا في حياة البشرية، فهو بحث قديم قدم اللغة البشرية نفسها، رغم أن لفظة لسانيات حديثة العهد، والشيء الجديد فيه هو أن الفكر اللساني المعاصر متفتح على معارف شتى، من منطق ورياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع وإحصاء وإعلاميات ...وغيرها، لذلك فرضت نفسها في إطار العلوم الإنسانية كنظرية ومنهج.

٥ –المنهج المقارن : يُعَدّ هذا المنهج أقدم المناهج اللغوية الحديثة ، يتناول بالدراسة المقارنة عدة لغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة ، يعتمد في ذلك على تصنيف اللغات واللهجات المختلفة إلى أسرات لغوية على أنّ القرابة بين هذه اللغات لم تكن معروفة بشكل دقيق قبل اكتشاف اللغة السنسكريتية التي فُورنت باليونانية واللاتينية فاتّضح بعد المقارنة وجود صلة قرابة بين هذه اللغات التي رأى الباحثون اللغويّون أنّها انحدرت من أصل لأوجه التشابه بين لغات الأسرة الواحدة في الأصوات والصرف والنحو والدلالة.

وقد ظل المنهج المقارن سائدا طيلة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى جاء اللغوي السويسري دي سوسير وأثبت إمكان بحث اللغة الواحدة من كل جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية مخالفا بذلك ما كان سائدا آنذاك من عدم إمكانية بحث اللغة الواحدة بحثا علميا دقيقا ، و لم يعرف المحدثون العرب هذا المنهج إلا في مطلع القرن العشرين من خلال بعض الجامعات حيث "قررت اللوائح الجامعية تدريس مقرر اللغات الشرقية بأقسام اللغة العربية بكليات الآداب، ثم أنشأت

أقساما خاصة للغات الشرقية، ومن ثم عرفت البحوث المستقلة والمتخصصة في اللغات السامية وأجريت المقارنات وظهر ما يعرف بالنحو المقارن للغات السامية"[6].

إذا لقد اتضح هذا المنهج مع ظهور اللّغة السنسكريتية التي كانت حافزا للدراسات المقارنة، ويقوم هذا المنهج على الدراسة النحوية والصرفية والدلالية بمقارنة تجري بين لغتين أو أكثر من فصيلة لغوية واحدة، كالفصيلة السامية مثلا، فتهتم بدراستها من حيث الأصوات وتشكيلاتها وبناؤها ومخارجها وصفاتها ووظائفها [7]، ومن نتائج هذا المنهج ما يأتي:

إعادة بناء وتقويم النصوص اللغوية غير الموثوق بصحتها، التي عالجت الكثير من الظواهر اللغوية، وقدمت الأعمال الأدبية في ميدان الشعر والنثر والنقد، و"تسهيل البحث في ميدان الفصائل اللغوية وروابطها التركيبية وصولا إلى لغة الأم.."[8] ، فقد كانت مبادئ هذا المنهج في غاية الدقة والوضوح، كونها تكشف عن جلّ أوجه الشبه والاختلاف بين حادثتين أو أكثر وترتبط بحوادث اجتماعية محددة بزمانها ومكانها وتاريخها، فيتميز بذلك موضوع البحث عن الموضوعات الأخرى، وتجدر الإشارة إلى أن هذا المنهج قديم قدم الفكر الإنساني فقد استخدمه أرسطو وأفلاطون كوسيلة في الحوار وفي المناقشة، بهدف قبول أو رفض القضايا والأفكار المعروضة للنقاش.

هوامش و مراجع المحاضرة :

1 –مدخل إلى علم اللغة، لمحمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، 1998 م ، ص136.

2_ عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، ط1 ، عمان، الأردن 2002 ، دار الصفاء ، ص 127.

3_ أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ط .2 الجزائر، 2005 ديوان المطبوعات الجامعية، ص8 .

4_ عبد القادر عبد الجليل، علم اللّسانيات الحديثة، ص132 .

5_ المرجع نفسه، ص128 .

6_ نادية رمضان النجار، فصول في الدرس اللغوي بين القدامى والمحدثين، ط 1 بيروت 2006 ، دار الوفاء للنشر، ص،141

7_ أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور ص8 .

8_ فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين، لنادية رمضان النجار، دار الوفاء، الإسكندرية، 2116 م، ص 136-144.